الترجمـــة

خطرها وأثرها فى الأمم المختلفة

للدكتور عبد العزيز عزت

١ – عند الرومان

تمر على الأمم فى تاريخها فترات تشعر خلالها بحاجة إلى رفع نفسها إلى مستوى من سبقها من الشعوب فى مضمار التقدم الفكرى ، فيحدث إبان ذلك نوع من الهجرة الثقافية فى أنواع المعارف المختلفة وخاصة فى مجال الفلسفة ، لأنها حتى منتصف القرن الثامن عشر ، أى قبل أن تأخذ فلسفة كانت شكلها الحاسم ، كانت تفهم بأنها مجموع العلوم الإنسانية . ومن الطرق التى تمهد لهذه الهجرة الثقافية : الحروب تارة كما حدث إبان الحروب الصليبية من اشتباك التفكير المسيحى والتفكير الإسلامى ، وتارة التجارة فهى بجوار ما تحمله من السلع تحمل على وجه خاص تفسيراً لها وشرحاً عقلياً . وأمر الفينيقيين Phéniciens معروف فى هذا الباب ؛ ومنها الرحلات وأهميتها ظاهرة عند أفلاطون وتأثره بالتفكير المصرى القديم كما يلاحظ ذلك عنده فى مقدمة كتابه « طيماوس » Timée ، وكذلك عند ابن خلدون فى « مقدمته » ؛ ومنها البعثات العلمية فى خارج البلاد كبعثات فرنسا فى ألمانيا ، فرافيسون Ravaisson يشيد بذكر أستاذه شلنج Schelling ، وأستاذنا بوجليه Bouglé يشيد بذكر اهرنج Ihring ؛ وكبعثات مصر فى فرنسا ، فهناك من ينطق باسم جوستاف لوبون G. Lebon ، وهناك من يبشر باسم ديكارت وغير ذلك . ولكن مهما يكن لهذه الطرق من الأهمية فى هجرة الثقافة ، فهى فى نظرى ناقصة لأنها لا تخلق إلا عرفاً ثقافياً . ومن أصول العرف عامة ألا يستقر على قرار متين ، لأنه يخضع لظاهرة التقليد فى المجتمعات البشرية كما يؤكد ذلك العلامة تارد Tarde فى كتابه « القوانين الاجتماعية » . لهذا لزم خلق قانون وضعى للثقافة يحدد شرعتها واتجاهها ويضمن لها الاستقرار والإنتاج خلال نزعة معينة ، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا بالترجمة La traduction ، فهى الأساس الأول الذى عليه يبنى « التماسك » الفكرى فى عقلية الفرد ، والتماسك الفكرى فى عقلية المجتمع

وأهمية الترجمة تتلخص فى أربعة أفكار نجدها عند زعيم الأدب الفرنسى وأستاذه السابق بمدرسة المعلمين العليا بباريس العلامة لانسون Lanson فى « مجلة التاريخ الأدبى لفرنسا » عام ١٨٩٦

أولاً — تمهد الترجمة لخلق «فكرة عامة» عن الشعب المترجم عنه ، لأن الشعب المترجم إليه سيهتم فى ذلك الحين بتعرف تاريخه فى كل نواحيه ، وحالته السياسية والاجتماعية الراهنة ، وآدابه وفنونه ، وسائر أنواع نشاطه التى تكوّن حضارته فى مجموعها

ثانياً — الترجمة تحقق «الاستفادة المؤكدة» فى موضوعات معينة ، خلال تيارات محدودة للفكر ، إبان زمن معين للشعب المترجم عنه ، فهى استفادة مباشرة تفصيلية تشتق من مطالعة الكتب المترجمة ذاتها

ثالثاً — الترجمة تخلق موجة فكرية فتوجه الرأى فى الشعب المترجم إلى غايات معينة ، هذه الموجة هى موجة « تقليدية » فهى استفادة غير مباشرة ، وذلك بأن يأخذ كتاب الشعب المترجم إليه نفس موضوعات التراجم ولكنهم يعالجونها من وجهة نظرهم الخاص بهم فى بلادهم ، أى الاستمرار بالاستفادة المباشرة من قراءة التراجم لمعالجة موضوعات تحل بروح وطنية على ضوء ما تحتويه التراجم من علم جديد ، فهى تمهد الاستمرار الوطنى الأهلى « بالاستفادة المؤكدة »

رابعاً — بعد هذا ينتج عن الترجمة نوع من الانسجام بين عقلية المترجم عنه والمترجم إليه ، وهذا الانسجام هو تداخل عقليتهما ، وظهور نوع من التشابه فى ألوان تفكيرهما ، فيحصل ضرب من الاتحاد فى الذوق والتفكير والميول ، ويكتسب نشاط الاثنين نفس الشكل ، ويتجهان إلى نفس الغاية

لهذا عند ما أحس الرومان أنهم أهل حروب وسفك دماء يفرضون استعباد السيف باسم القانون والتشريع على الهادئين المطمئنين من خلق الله — ذهبوا إلى اليونان القدماء ينشدون أصول العقل ، واتزان الحس ، ومنطق الجمال ، ليقللوا من حدة طباعهم ، وتنافر غرائزهم ، ولينعموا — قليلاً — بما للانسانية

من معان سامية ، وآيات قدسية ، وأهم من يمثل حركة الترجمة عندهم هو بلا شك ، شيشرون Ciceron ، ولقد حاول دراسة هذا الرجل كل من العلامة فان هوسدو Van Heusde ، والعلامة بومهور Baumhauer ، الأول يبحث عن أثر أفلاطون فى مؤلفاته والثانى عن أثر أرسطو فيها ، وذهبا إلى طريقة عقيمة فى ذلك تتلخص فى مقارنة النصوص وتشابه معانيها ، مع أن شيشرون أخذ العلم والفلسفة فى بلاد مختلفة وليس فى أثينا Athènes فقط مهبط المشائين من الفلاسفة ، فهو قد ساهم فى تأثره العقلى لمدارس فلسفية مختلفة ، فدرس بجوار ذلك على فدروس Phaedrus الأبيقورى ، وفيلون دى لاريس Philon de Larisse ومن ينتمى إلى تعاليم الأكاديمية الجديدة كأنطيوخس Antiochus ؛ ودرس على الخصوص على ديودوتس الرواقى Diodotus ومن ينتمى إلى هذه المدرسة كبسدونيس Posidonius ، ثم إنهما لم يرجعا إلى الصفات الأساسية التى تميز العقلية الرومانية وأخصها كما يذكر العلامة Thiancourx — الجمع L'éclectisme ، فحقيقة نجد عنده أثراً لأفلاطون وأثراً لأرسطو وإنما كذلك « وقبل ذلك » هناك أثر الرواقيين والأكاديمية الجديدة ، فهى التى سادت تربيته عند ما رحل إلى بلاد اليونان ، وهى التى سادت كذلك فى كل مكان فى زمانه وقبل زمانه ، لأن حروب الاسكندر الأكبر عاقت انتشار مذاهب أفلاطون وأرسطو سواء فى المجتمع اليونانى أم المجتمع الرومانى — كما يؤكد العلامة جانيه Janet : فبعد هذه الحروب حدث كما يحدث عادة بعد انتهاء كل حرب من ضعف أخلاقى لهبوط قيمة الحياة فى إفهام المحاربين والانغماس فى اللذات كنتيجة للانتصارات ، وكذلك ضياع الفهم السياسى وأهمية الفرد فى المجتمع ، وكذلك انعدام الروح الدينية والاهتمام بالنتائج المادية للغزو ، وهذا بطبيعة الحال يجنى على التصور السامى لغايات النفس فى أمور الحياة . ولما كانت فلسفة أفلاطون كأساس فلسفة « طبيعية » تهتم بفهم عالمنا الخارجى على قياس عالم داخلى هو عالم الأفكار الخالدة ، ولما كانت فلسفة أرسطو Aristote كأساس فلسفة منطقية تبنى إقامة العلم والوصول إلى الحقيقة المجردة ، شعر اليونان بعد تلك الحروب بحاجة إلى فلسفة جديدة تسمو بنفوسهم إلى مستوى أرفع مما وصلوا إليه ، أى كانوا بحاجة ماسة إلى فلسفة أخلاقية ، لهذا سادت مباشرة تعاليم الرواقيين وظل أرسطو نسياً منسياً حتى القرن التاسع الميلادى حيث ولد من جديد عند العرب ، ومن جديد كذلك إبان القرن الثالث عشر الميلادى عند آباء الكنيسة فى أوروبا خاصة القديس البير الكبير Albertus huagnus ، والقديس توماس St Thomas فهذه هى الحوادث التاريخية الصريحة التى بدونها لا يمكن أن يفهم المنطق التاريخى للفلسفات فى جولاتها المتعاقبة

على أية حال لقد كان شيشرون « زنجياً أبيض » Un nègre blanc لأساطين اليونان القدماء فى تفكيره وهو يعترف بذلك فى نص صريح تعبنا فى استخلاصه من مؤلفاته حيث يقول فى الأتيكوس ad atticum,XII,S2 ما ترجمته : « إن مؤلفاتى لم أجد فى كتابتها عناء كبيراً ، لأننى بحثت فقط عن الاصطلاحات التى وفقت فى وضعها »

وفى واقع الأمر أن أغلب مؤلفات شيشرون إن لم تكن كلها عبارة عن « ترجمة حرفية » للكتب اليونانية القديمة ، بل أحياناً يعجز عن وضع الاصطلاحات لبعض التعابير اليونانية فيتركها على حالها دون نقل ، كما فعل بعد ذلك العرب فى كلمة « ميتافيزيقا » و « إيساغوجى » ، فهو يترك مثلاً اللفظين اليونانيين لكلمتى الأفكار والمقولات عند ما يعرض للأخلاق العملية ، ونجد فى وضوح أثر أفلاطون ظاهراً فى نواميس شيشرون the lâhibus ، وجمهوريته the Republica وفيهما يعرض فهمه للسياسة ، فهو يبغى تحقيق دولة فيها تمتزج مبادئ الملكية والارستقراطية والديمقراطية فى آن واحد ، حتى يستقيم ظل الحكم وتسود الطمأنينة بين عباد الله ، لأن الحكومات القائمة فى عهده يعتبرها سورية تتخذ من الحكم سبيلاً لفرض السيف على رقاب الناس ووضع الحبل فى أعناقهم باسم الحرية تارة وباسم الصالح العام تارة أخرى . وأثر أرسطو على الخصوص فى التوسكيلان Tusculanes وفى هورتنيوس Horten Sius حيث يعرض فى الأول للنفس الإنسانية فى أصلها وطبيعتها وقدرتها فى التصور وأنواع ملكاتها المختلفة ، وخاصة الشهوات والانفعالات النفسية فى كل نواحيها بدقة تفوق الوصف ؛ وفى الثانى يعرض للأسباب التى دعته لدراسة الفلسفة وأهمية أرسطو فى هذا الباب

« البقية فى العدد القادم »

عبد العزيز عزت
خريج جامعات القاهرة ، وباريس ، وكليرمون
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة